العمارة المدنية في مدينة طبنه خلال العهد الروماني – دراسة أثرية –

Civil architecture in the city of Tabna during the Roman era - an archaeological study -

د. التجاني مياطه*

جامعة الوادي – الجزائر.

tedjani-mayata@univ-eloued.dz

ط .د/ حكيمة شيحي

جامعة الوادي – الجزائر.

hakimachihi39@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/01 تاريخ القبول 2022/09/06 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص: يعد النموذج العمراني الروماني القائم على أسس فكرية مرتكزة على تصور العالم المدني الخاضع لروما على أنه أمثلة مكررة لنسخة أصلية تشكلت عناصرها في روما نفسها، و من الأدلة الواضحة على ذلك هي الخصائص المميزة لعمران الروماني الملاحظ في صور متكررة عبر المقاطعات، بحيث لم تختلف نماذج العمارة فيها سواء كانت مدنية أو عسكرية، من حيث الشكل أو مادة البناء المستعملة أما بناياتها الوظيفية فهي موحدة و تستجيب لمفاهيم مدنية وثقافية واحدة، ومن أمثلة المنشآت المدنية التي ظهرت و ازدهرت في إقليم الحضنة تحت السيطرة الرومانية مدينة طبنه وما صاحب ذلك من أعمال الري.

الكلمات المفتاحية: العمارة المدنية، روما، الليمس، مدينة طبنه، الأثار، الحضنة.

* المؤلف المراسل

Abstract:

The Roman urban model based on intellectual foundations based on the perception of the civil world under Rome as replicated examples of an original version whose elements were formed in Rome itself, and clear evidence of this are the distinctive characteristics of Roman urbanization observed in repeated images across the provinces, so that the models of architecture did not differ In it, whether civilian or military, in terms of shape or building material used, as for its functional structures, they are unified and respond to one civil and cultural concepts.

Examples of civil facilities that appeared and flourished in the province of Al-Hudna under the Roman control are the city of Tabna and the irrigation works that accompanied that, given that this is one of the manifestations of vitality that arose in some of the provinces of Al-Lims.

key words: Civil architecture, Rome, Al-Limes, Tabna city, antiquities, Al-Hadna.

مقدمة:

تعد مدينة طبنه أحد أهم المدن التاريخية في بلاد المغرب القديم، و ذلك بسبب تربعها على موقع حصين، تتوفر فيه الشروط من وفرة المياه و التربة الخصبة التي ساعدت على الانتشار الروماني ببلاد المغرب القديم عامة، و تغلغل السيطرة العسكرية في الجنوب على وجه الخصوص، خاصة و أن السيطرة الرومانية قد مست ظاهرة البداوة الناجمة على تذبذب المناخ في منطقة التلامس بين التل و الصحراء، و أن تلك السيطرة متجسدة في المنشآت العمرانية و النشاط الزراعي المتنوع.

وقد كان لسكان الأصليين دورا في الاستفادة من المعطيات الجغرافية التي تتميز بها المنطقة و هذا سابق للعهد الروماني، ذلك باستغلالهم للموارد المائية و خصوبة التربة التي حققوا بها التوازن البيئي البشري، هذا التوازن الذي أحدث الرومان فيه خللا بتكثيفهم المنشآت العسكرية في المنطقة على حسب رأي بعض المؤرخين.

و من هنا يمكننا طرح الإشكال التالي: ما هو دور مدينة طبنه خلال العهد الروماني؟ وكيف كان التطور التاريخي لها؟ وماهي مظاهر الري و التحكم في المياه بالنسبة للمدينة و إقليمها؟

و للإجابة على هذه الإشكال اتبعنا المنهج التاريخي لتتبع مراحل التطور التاريخي لمدينة طبنه، و المنهج الوصفي في وصف المدينة و الخزانات التي كانت موجودة بها.

و تكمن أهمية الموضوع في الدور البارز و المهم الذي لعبته مدينة طبنه التاريخية خلال العهد الروماني في بلاد المغرب القديم.

1– التطور التاريخي لمدينة طبنه:

1–1– وصف المدينة :

تتربع مدينة طبنه على مساحة كبيرة قدرت من طرف بعض المحققين بأكثر من ثمانين هكتار هذا فضلا عن الجوار العمراني المتمثل في الأحياء التي ظهرت خارج أسوارها، و التي قدرت مساحتها مضافة إلى المساحة التي يشملها سور طبنه بحوالي أربع كيلومترات مربعة، وهذا الامتداد العمراني الضخم لا يرجع كله إلى العهد المتأخر و لكنه حصيلة تراكم تم عبر العصور منذ ما قبل الاحتلال الروماني إلى أوائل العهد الإسلامي[1].

و قد حد الجغرافيون القدماء موقعها ضمن حدود إقليم حدود الزاب الممتد على حدود مقاطعة نوميديا بحيث وصفها اليعقوبي بقوله : " ... طبنه مدينة الزاب العظمى و هي في وسط الزاب ... " ، كما وصف ابن خلدون موقعها بقوله : " ... و بلاد الحضنة حيث كانت طبنه ما بين الزاب و التل ... "[2].

أما اليوم تقع على بعد أربع كيلومترات جنوب شرق مدينة بريكة، و تقع إداريا ضمن حدود بلديتي بريكة و بيطام، على الطريق الوطني 77 الرابط بين بسكرة و بريكة و على الطريق بين مدينتي بريكة و امدوكال و هي بين واد بريكة و بيطام[3].

1–2– التطور التاريخي للمدينة:

أ– التسمية:

إن المتتبع لتاريخ مدينة طبنه، يجد أنها قد وقعت تحت سيطرة الاحتلال الروماني، و ذلك بتأكيد كثير من المؤرخين الذين اعتقدوا بقدم طبنه عن العهد الروماني و أنها كانت إحدى قصبات قبائل الجيتول في الفترة النوميدية غير أن الأدلة الأثرية على ذلك غير متوفرة و هذا راجع لافتقار الموقع إلى التنقيبات المنظمة التي من شأنها توضيح الغموض، و كشف وثائق قد تفيد في تأكيد مثل هذا الرأي أو دحضه، و هو رأي يستند إلى بعض الوثائق العائدة إلى العهد النوميدي، أهمها قطع نقدية و كتابات لوبية (نوميدية)، لا تتضمن ما يشير إلى مدينة طبنه[4].

أما الجغرافي بطليموس الاسكندري فقد ذكرها على أنها إحدى المدن الموريتانية، لكن قوائم الأسقفيات المسيحية الصادرة فيما بعد نصت على وجود ممثلي مدينة تحمل اسم طبنه في كل من مقاطعة نوميديا وموريتانيا، و هو ما أثار جدلا حول الانتماء الاداري لطبنه، هذا الجدل الذي حاول Gsell أن يحسمه بافتراض مدينتن تحملان اسم طبنه إحداهما كانت في مقاطعة نوميديا[5]، و هي طبنه المعروفة لدينا و الأخرى كانت بالإقليم الإداري للمقاطعة القيصرية لا يعرف موقعها الآن، هذا الرأي حسب الدكتور محمد البشير شنيتي لا ينهي الإشكال حيث يظن أن طبنه مدينة واحدة، و أن تكرار اسمها في مقاطعتين لا يعدو أن يكون خطأ ناجما عن الاستنساخ، إذ كثيرا ما وقع مثله في القوائم الكنسية.

و قد ورد اسم طبنه في الوثائق اللاتينية و النصوص الكنيسية بصيغ مختلفة، يغلب على الظن أنها تحريفات لاسم أصلي واحد، ومنها: توبونا Thoubona[6] عند بطليموس حسب الترجمة اللاتينية و توبوني Thubunae[7] في النقوش اللاتينية، و توبوناس Thubunas[8] في القوائم الأسقفية الإفريقية، و توبونيس Thbunis في لوحة بوطنجير، و هي الصيغة التي وردت في نصوص أوغسطين[9]، بالإضافة إلى صيغ

أخرى منها توبونيانسيس Tubuniensis و تعبر هذه الصيغ عن الشهرة التي تمتعت بها طبنه في ذلك العهد، و هي صيغ لا تبعد عن الشكل الذي احتفظت به إلى الآن فهي أكثر المدن الجزائرية التي استسهل النطق العربي اسمها فسار على اللسان دون تحريف فوصلنا كما تلفظ به أوائل العرب الفاتحين مدونا في كتب المؤرخين مثل ابن خلدون[10].

ب– نشأة مدينة طبنه:

إن الوثائق المتعلقة بمدينة طبنه لا تؤرخ لها قبل القرن الثاني للميلاد،[11] و هي نقوش تتعلق بطبنه كمدينة رومانية، حيث تذكر النقوش أسماء حكام مدينة طبنه في عهد الأباطرة السيفيريين و انقسام المجلس البلدي فيها، و ما إلى ذلك من الأخبار العادية. و يبدو أن مدينة طبنه كانت عامرة قبل ذلك التاريخ، و أن عدم ذكرها مبكرا راجع لكونها واقعة خارج الليمس الذي مر خطه الثاني إلى الشمال من طبنه، و أن هذه المدينة بقيت على طابعها المدني بإقليم زراعي هام، ما لبث أن تسلل إليه المستوطنون الرومان بعد أن امتد الخط الدفاعي من الليمس إلى ما وراء طبنه جنوبا، ثم تزايدت الجالية الرومانية فأصبغ عليها الأباطرة الطابع الروماني[12].

و قد عرفت منطقة الحضنة نشاط عسكري خلال القرنين الثاني و الثالث الميلاديين أثره الواضح على منطقة الحضنة، حيث مدت بها شبكة طرق كثيفة طوقت مناطق الإنتاج الزراعي، و وصلت مراكز العمران ببعضها و يسرت حركة التجارة و تنقل وحدات الجيش ما بين المعسكرات الخلفية مثل "لامباز"[13] والمراكز المتقدمة مثل "قلعة ديميدي"[14]، و كان وضع طبنه في هذه الشبكة متميزا بحيوية خاصة، لكونها تتوفر على مياه و تربة خصبة و مناخ ملائم، و هو ما شجع على استقرار المستوطنين الرومان و من والاهم من الأهالي بها، فاتسعت المدينة و تطور عمرانها و شاعت شهرتها، فأصبحت إحدى العقد الرئيسية في شبكة المواصلات ببلاد الحضنة من جهة، و بين إقليمي التل

والصحراء من جهة ثانية، و رشحها موقعها وفعاليتها لأن يتخذ منها أباطرة العهد الامبراطوري المتأخر مركزا قياديا لحدود موريتانيا القيصرية في بلاد الحضنة[15].

خلال أواخر القرن الثالث للميلاد قام الامبراطور دقليانوس بتقسيم إداري و جزئت المقاطعة القيصرية بموجبه إلى مقاطعتين: السطايفية و القيصرية، فوقعت مدينة طبنه في جزء مقاطعة ستيفيس المستحدثة، فأصبح لها شأن كبير في بلاد الزيبان، ووصفت بعاصمة الزاب، و هي مكانة يبدو أنها بلغتها في تلك الفترة[16].

و تدل إقامة حاكم إفريقيا الكونت بونيفاص Boniface بطبنه عام 427 م حينما كان الوضع السياسي والعسكري بشمال إفريقيا مهيأ لاستقبال الوندال، دليل على الأهمية العسكرية التي كانت تحظى بها مدينة طبنه آنذاك[17].

أما عن آثار المدينة، فإن أول أعمال التنقيب العاجلة كان قد قام بها ماسكوري عام 1876م في رحلة استكشافية شملت سريانة و بلزمة و نقاوس و طبنه، وتمكن خلال تلك الحفرية من الكشف عن بعض معالم المدينة، و التعرف على أنها متراكبة: رومانية، بيزنطية، إسلامية[18].

2_ مظاهر الري و التحكم في المياه بالنسبة لمدينة طبنه و إقليمها :

كشفت التحريات و التنقيبات الأثرية عن بقايا منشآت نقل المياه و توزيعها انطلاقا من أحد السدود الهامة الذي كان مقاما عند ملتقى وادي بريكة بوادي خليج صخري، و هو يعد أكبر السدود المقامة بإقليم طبنه، حيث قدر طوله بما لا يقل عن 50 مترا. و كشفت الحفريات عن بقايا سور متين بني بحجارة منحوتة بسمك 0.80 مترا كان يحمي القناة الناقلة انطلاقا من جنوبي السد، و هي قناة لا تظهر آثار مسارها بوضوح لكنها بارزة أكثر في شُعب اجتازته فبني لها عليه حامل قوي يرفع إلى المستوى المطلوب من علو مسار القناة و قد لوحظ أثر تلك القناة عبر مرورها بتلة استوجبت حفر خندق لها إلى عمق يحفظ نسبة مستوى الانحدار المتوخي[19].

يذكر قرانج أنه تمكن من متابعة إمارات القناة المذكورة على مدى مسافة 1500م، انطلاقا من مكان يقع بين طريقي طبنه و امدوكال على مقربة من الضفة اليسرى لوادي بريكة، إلى نقطة تبعد بمسافة 400م عن سور طبنه. و أن الاتجاه العام لمسار هذه القناة مستقيم، لكنه ينحرف نحو الشمال الشرقي عند اقترابه من وادي بريكة بزاوية 130 درجة كي يتجه نحو بقايا سد روماني على وادي طبنه بشمالي المدينة، و كشفت أعمال التنقيب عن مدخل القناة الناقلة المذكورة إلى مدينة طبنه عند الزاوية الشمالية الشرقية من السور. و هي قناة ذات شكل مجوف منحوتة في صخور موصولة ببعضها. و يبلغ متوسط أطوالها مترين و معدل عرضها ما بين 60 و 90 سم. و هو نفس مقياس سمك جدران القناة[20].

و يظهر أن المياه المنقولة من وادي بريكة لم تكن كافية لسد حاجة مدينة طبنه و بساتينها و حقولها مما تطلب البحث عن مصدر آخر، و هو وادي بيطام المار إلى الجنوب من طبنه، فقد عثر على بقايا قناة ناقلة من أحد السدود المقامة على هذا الوادي، كانت تزود طبنه بالمياه و يظهر حسب التحقيق الميداني أن تلك القناة كانت تمر بمحاذاة الضفة اليمنى لوادي بيطام على بعد حوالي 200 متر من مجراه لتنتهي إلى إحدى منشآت الحفظ بداخل أسوار المدينة[21].

و قد عثر في القسم الشمالي الغربي من المدينة على بقايا خزان كبير غير بعيد عن المحور المركزي، يبدو أنه كان مخصصا للمياه المحمولة من وادي بريكة، و قد كشفت الحفرية عن أحد جوانب الخزان الذي يبلغ طوله أكثر من 20 مترا، في حين بلغ عرض الخزان حوالي 17 مترا. و كان الجزء المكتشف منه لا يزال محتفظا بعلو جدرانه إلى 60 سم. في بعض الأجزاء منه أثناء الحفرية، و يتميز هذا الخزان باحتوائه على حوض داخلي أكثر عمقا (5.60 م)، ذي أبعاد 7.60 × 3.70م. و عمق 5.10م يتوسطه حوض دائري قطره متر واحد، و عمقه دون المتر (0.70م) يبدو أنه كان مخصصا لترسيب

العوالق فيسهل رفعها منه، و كان الخزان متصلا بالقناة الناقلة الموصوفة أعلاه في اتجاه سد وادي بريكة. غير أن القناة الناقلة من سد وادي بيطام لم يعثر على بقايا الخزان أو الصهريج الذي كانت تصب فيه. و لعل ذلك لا يزال محفوظا تحت أنقاض مدينة طبنه التي لم تجر بها حفريات معتبرة منذ 1900م[22].

الخاتمة:

و ما يمكن التوصل إليه من خلال دراستنا السابقة لدور مدينة طبنه خلال العهد الروماني أن هذه المدينة ما هي إلا عينة من النماذج العمرانية المدنية المنتشرة في إقليم الحضنة، و أنها كانت مصدر حيوي ارتكزت عليه مصدرين أساسيين هما التربة الخصبة و المياه، بالإضافة إلى العامل البشري الفعال الذي تراكمت لديه تقاليد المجتمع الحضري الريفي النشيط، و كان للإدارة الرومانية ذات الصبغة العسكرية دور الأساس في حماية المؤسسات المدنية و توفير وسائل الاتصال و الحماية لحث النشاط الاقتصادي على الإنتاج أكثر بالقدر الذي يضمن تموين الحاميات العسكرية و السكان المدنيين، و ما تتطلبه الإدارة المركزية.

حيث أصبح لإقليم الحضنة مكانة متميزة بالنسبة للدولة، لا لكونه يسد ثغور التل في وجه البدو المزعجين، و هو الغرض من التمركز هناك في بداية الأمر من طرف الرومان و البيزنطيين بعدهم، و لكن لكون إقليم الحضنة أصبح قاعدة عمرانية مرتكزة على نشاط اقتصادي مثمر أفاد منه سكان المنطقة و أصحاب السلطة على السواء. و لعل ذلك ما أهل هذا الإقليم أن يكتسب الأهمية لدى المؤرخين و الجغرافيين العرب في العصور الإسلامية الأولى.

الهوامش:

[1] البشير شنيتي، روما الامبراطورية و بلاد المغرب (سجال عسكري و تفاعل حضاري)، الجزائر، 2019، ص 136.

[2]موسى لقبال، قاعدة طبنه و الشرعية الخلافية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر، ص 91.

موسى لقبال، طبنه مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى، مجلة الأصالة، العدد 60 /61،

[3] نفسه. أوت،1978،ص83.

[4] محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص 136.

[5] Gsell st,H.A.A.N., T5 p.37/10.

[6] محمد البشير شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص164.

[7] Gsell st,H.A.A.N., T5 p.37/10.

[8]أسامة الطيب جعيل، طبنه حاضرة إقليم الزاب و الأوراس في العصور الوسطى، مجلة قبس،العدد2،جامعة الجزائر، 2018، ص 389

[9] Gsell st,H.A.A.N., T5 p.37/10.

[10] عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان العبر و المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، دار الفكر، للطباعة و النشر، بيروت، 2000، ص 132.

[11] عبد القادر صحراوي، التحصينات العسكرية بنوميديا و موريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني، دار الهدى، الجزائر،2011،ص 21.

[12] محمد البشير شنيتي، روما الإمبراطورية...، ص 137.

[13] يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 66.

عبد الحميد عمران، الرومنة و التدين في شمال إفريقيا،ط1،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2018، ص 26.
[14]

[15] محمد البشير شنيتي، أضواء على تاريخ الجزائر القديمة، دار الحكمة، الجزائر، 2003، ص 106.

[16] محمد البشير شنيتي، روما الإمبراطورية ...، ص 138.

[17] أسامة الطيب جعيل، المرجع السابق، ص 392.

[18] محمد البشير شنيتي، روما الإمبراطورية ...، ص 139 .

[19] عبد الحكيم أوكعور، طبنه عبر التاريخ، مجلة الدراسات الأثرية، العدد1، معهد الآثار، الجزائر،

2018، ص 19.

[20] محمد البشير شنيتي، روما الإمبراطورية ...، ص 139 .

[21] عبد الحكيم أوكعور، المرجع السابق، ص20.

[22] محمد البشير شنيتي، روما الإمبراطورية ...، ص 142 .